الحلقة (١٣)

❖ النظام الاجتماعي في الإسلام

انتهينا في الحلقة الماضية من الحديث عن النظام الأخلاقي في الإسلام وننتقل في هذه الحلقة إلى نظام آخر هو النظام الاجتماعي في الإسلام.

النظام الاجتماعي قد يطلق ويراد به :**النظام السائد في مجتمع ما من جميع أوجهه.**

وقد يراد به **ما ينظم العلاقات الاجتماعية الخاصة، أي في نطاق الأسرة وما يتصل بها.**

وهنا سنتناول النظام الاجتماعي من حيث: **الأصول والخصائص** نتناوله بوجه عام، ثم بعد ذلك نعرج على الحديث عن **نظام الأسرة في الإسلام** وما يتصل به بإذن الله.

بالنسبة للنظام الاجتماعي في الإسلام:**هو نظام راعى الوقائع، وبايع الاجتماع الإنساني، ووجه الناس لما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة،** على ما سيتضح، لكن قبل أن أخوض فيه، أقول:

إن من الحقائق التي لا تقبل الشك، التي عرفت بالاستقراء والنظر في أحوال البشر، في أفرادهم وفي مجتمعاتهم:

أولا: أن الأفراد لا يمكن أن يعيشوا وحدهم

وإن شذ عن ذلك من شذ بصورة أو بأخرى، لكنه سيظل على صلة بالمجتمع بوجه ما، ويحتاج إليه بوجه من الوجوه، حتى ولو انفرد في عزلة أو خلوة، فسيعود بين آونة وأخرى للمجتمع، لأن الاجتماع ضروري للإنسان، إما لأن لديه المنزع النفسي أو طلب الأنس بالآخرين، وهذه حاجة فطرية، أو لأن لديه حاجات مادية يحتاج إليها، وبالتالي فهو يتجه إلى المجتمع لتلبية هذه الحاجات المادية أو الإنسانية.

فإذا كان الأمر كذلك فلا بد للمجتمع من نظام، لا يمكن أن يعيش المجتمع بدون سلطة تدفع بعضه عن بعض، ونزع بعضه عن بعض، بواسطة نظام معين، مهما كان المجتمع بسيطاً، فإن له نظاما يحكمه ويضبط حياته وسلوكه؛ سواء كان هذا النظام شفهياً غير مكتوب ومتعارف عليه، كما هي أعراف القبائل، أوكان مكتوباً، وهذا المكتوب سواء كان وحياً أو كان مما دوّنه الناس وضبطوه، كالمدونات القانونية القديمة الموجودة، **كمدونة جستنيان** عند الرومان وغيره من المدونات القانونية، التي تنظم تصرفات الناس وسلوكهم.

المهم أنه لابد للمجتمع من نظام يضبط حركته، والأمر الآخر أن هذا النظام لا بد له من أسس وأصول ومصادر، ولا يمكن أن يتكون هكذا بين عشية وضحاها، وهذه الأصول والأسس إما أن يكون مصدرها الشرع، وإما أن يكون مصدرها شيء آخر.

ولها أثر في بناء القانون أو النظام نفسه، فتفريعاته العملية مرتبة على الأساس النظري للقانون.

ولذلك ينعكس أثره على من طبق فيه بخير أو شر، وقد أشار الله عز وجل إلى أثر الوحي المنزل لو عُمل به على الوجه المطلوب، ماذا سيحصل؟

ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، بمعنى إقامة شرع الله وهدي الله تضمن السعادة، وتحقق وفرة الإنتاج، وتحقق الخير العاجل والآجل.

❖ أسس النظام الاجتماعي في الإسلام

قائم على أسس صلبة تحقق السعادة للإنسان، منها:

أولاً: أن النظام تأسس على الإيمان بالله عز وجل، والدار الآخرة، والإيمان بالله والدار الآخرة هي الأساس الأول لهذا النظام، وهي سارية في أوصاله، مؤثرة في تطبيقه، فبحسب الإيمان وقوته يكون المسارعة إلى تطبيقه، وبحسب تطبيقه تظهر ثمرته، فهذا هو الأساس، ولذلك جاءت الأسس الأخرى متوافقة معه، ومؤدية إلى ما سيؤدي إليه هذا الأساس.

ثانيا: الأساس الفطري، بمعنى أن النظام الاجتماعي في الإسلام جاء موافقاً للفطرة وليس مناقضًا لها، قد يكون من الأنظمة ما يوافق الفطرة من جانب ويناقضها من جانب، ومن الفطرة محبة الناس لأنفسهم، ومحبتهم للمال، ولتحصيل الشهوات، فمثلاً: مما يتيح هذا الجانب وبتوسع:

النظام الرأسمالي: ولكنه لا يوافق الفطرة في جوانب أخرى، ولهذا دخل عليه النقص في جهة مناقضته للفطرة، ودخل عليه النجاح من حيث موافقته للفطرة،فما وافق فيه الفطرة آتى ثمرته، وما ناقض في الفطرة كان نقصاً فيه ونقصاً عليه، ولذلك من نتائجه الظلم وزيادة الفساد في الأرض، ونحو ذلك من الآثار السيئة التي نلحظها ونشاهدها ولا يغالط فيها إلا مكابر، فالإسلام ميزته: أنه وافق الفطرة حينما فتح لها أبواب تحقيق الشهوة، ولكنه ضبطها بما لا يؤدي إلى الظلم والفساد،فلم يمنع الإنسان من تحصيل شهوته،ولكنه وجهها توجيهاً سليماً لا يؤدي إلى الظلم، ووافق الفطرة الأساسية التي هي توحيد الله عز وجل والعدل والمساواة وغيرها من القيم الأساسية التي تحبها الإنسانية وتميل إليها فطرة، ووافق الفطرة في الرغبة في تحصيل الشهوات ونحوها، ولكنه ضبط هذه بتلك فكان أساساً عظيماً، في حينما فعّلت الفطرة تفعيلاً جيداً وقوياً يأخذ بالإيجابيات ويدفع السلبيات.

فهذا الأساس الفطري، لم نره عند الآخرين، فإما أن يكون انطلاق مع جانب من جوانب الفطرة ومناقضة لجانب آخر، وبعكس هذا من رأى مصلحة طبقة على طبقة، أو فئة على فئة، فرأى أن يلغي التفاوت في المجتمع الإنساني، وهذا مناقض ومضاد للفطرة لا يمكن أن يحصل، وكأنه أراد أن يجعل الجنة على الأرض، وحتى الجنة فيها تفاوت وإن كان الناس لا يشعرون بتفاوت بعضهم على بعض، بباب إكرام الله لهم بنزع الغل من قلوبهم إخوانا على سرر متقابلين.

المهم أن الأنظمة إن لم تكن من عند الله: لابد أن يتطرق إليها نقص من ناحية أسسها التي قامت

عليها، سواء كان النقص – وهذا النقص الأساس- جاءها من عدم القيام على الإيمان بالله، وعدم الانطلاق من وحيه وهديه، أو جاءها من ناحية أخرى كمناقضة الفطرة، إما مناقضة كلية وإما مناقضة جزئية.

والإسلام بحمد الله جمع ذلك كله، فالفطرة تقتضي التفاوت، لماذا؟

لأن الناس قدرات، ليسوا موهبة واحدة، وليسوا على مستوى واحد من الذكاء والقدرة وغيرها، فلكل ميوله، ولكل مواهبه، ولكل قدراته، وبالتالي لا يمكن جعل الكل على نمط واحد أو مستوى واحد، وقد أشار الله عز وجل إلى هذا التفاوت في كتابه قال: { نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}، فالتفاوت أمر لازم، هو نتيجة جبلة الإنسان، ونتيجة اختلاف القدرات والمواهب والميول ونحوها، ولكن صحيح أن الإنسان قد يتدخل فيظلم أخاه الإنسان فيزداد التفاوت، وقد يحرم صاحب المقدرة والكفاءة من الفرص حينما لا يكون هناك تكافؤ في الفرص، وقد يكون، لكن نحن لا نتحدث عن هذا الجانب، نتحدث عن الجانب الفطري، لا الجانب المكتسب والذي تدخل فيه الإنسان، فالجانب الفطري نتيجته التفاوت وليس التساوي التام في طلب المعيشة وفي اكتسابها..

ولذلك جاء النظام الاجتماعي مراعياً في الإسلام، فكما أنه مؤسس على الإيمان بالله، فكذلك قائم على اعتبار الفطرة في التشريعات والتنظيمات التي جاء بها.

مثلاً من مراعاة الفطرة: التيسير على الإنسان في أحوالٍ بحسب أحواله، فللمريض أحكام، والمسافر أحكام، وللفقير شيء يخصه بحيث يجوز له الأخذ مثلاً من الزكاة، في حين أن غيره لا يجوز له، وعلى الغني أحكام وإلى آخره من المراعاة، هذا التفاوت أو الاختلاف الذي يكون نتيجة جبلة الناس واختلاف هذه الجبلة فيما بين الأفراد، قوة وضعفاً وإبداعاً وعدم إبداع ونحو ذلك من الأمور، نحن هنا لا نتكلم عن الجانب الثقافي وتحكمه في الإبداع وغيره، نحن نتكلم عن الجانب الفطري الجبلي، هذا هو الأساس الثاني من أسس النظام الاجتماعي في الإسلام.

الأساس الثالث: **السنن الإلهية في الخلق** : لو قلنا السنن الإلهية وأطلقنا لدخل فيها الوحي والفطرة ودخل فيها كل الأبعاد، دخلت فيها لماذا؟ لأن سنن الله أنواع منها:سنن دينية، ومنها سنن في الخلق، وسنن في الأمر، وسنن في الخلق، والسنن الدينية أو سنن الدين غير سنن الخلق، ولكن التوجيهات التشريعية جاءت مراعيةً لسنن الله عز وجل في خلقه، هذه السنن التي في الخلق كلما كان هناك اعتبار لها كان التشريع أحرى بأن يجنب المجتمع الضيق والضنك والحجر، وكلما كان أكثر قدرة على تفعيل القوى والطاقات وتسخير ما أعطاه الله عز وجل للإنسان في هذا الكون من منافع، فالمنافع لا يستطيع الإنسان أن يسخرها إلا إذا اكتشف الطريق إلى تسخيرها، لذلك كان العلم بالسنن له أثر

عظيم في استفادة الناس باجتماعهم، بهذا نكون قد أنهينا الحديث عن أساسين من أسس النظام الاجتماعي في الإسلام، **الأساس الأول هو:الأساس الإيماني، والثاني: أساس الفطرة، أما الثالث** فقد أشرت إليه لكن سأتحدث عنه إن شاء الله في الحلقة القادمة.